

متى يكون العبد عبداً لله !!

الاستاذ عبد الله سلامه نصر

سبعوث الازهر للباكستان

جامعة بشاور

خلق الله الانسان وبيزه على سائر مخلوقاته بنعمة العقل . و كلفه برسالة
أوجب عليهم القيام بها—حيث جعله خليفة في الأرض ”واذ قال ربك للملكة اني
جاعل في الأرض خليفة،، (البقرة : ٣) و التقصود تسمير الأرض بالعمل على
اعظم عظمته سبحانه — و قدرته عن طريق الانتفاع بما خلقه الله الانسان .
و نشر الحب والخير والعدل في الأرض بين العالمين . و سخر الله الانسان سائر
مخلوقاته وأسلس قيادها لشفحته . واكسبه القدرة على التعلم والخبرة والحواس
لينتفع بكل شئ موجود في الأرض — ولقد كلف الانسان بأن يعمل كل ما من شأنه
ان يمينه على مشاق الحياة السليمة و يتعد عن كل ما فيه ضرره .

وجاءه ذلك عن طريق الرسالات والرسول المهداة اليه من قبله سبحانه .
والانسان بطبيعته سيال للخير والشر، وغير معصوم من الوقوع في الخطأ . ”و نفس
وما سواها . فاليهمها فجورها وتقواها،، (الشمس : ٧، ٨) ”انا هديته السبيل اما
شاكرًا واما كفورًا،، (الدهر : ٣)

والانسان في فعله للانفعال سواء خيرا أم شرا مطلق الارادة والحرية والاختيار

لفعل ما تبديل اليه نفسه . . . والا لما كانت هناك فائدة للشواب والعقاب .
 "فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره، (الزلزال : ٧، ٨)
 والله سبحانه عادل لا يظلم، فمن آمن قهرا عنه فإيمانه مردود عليه .
 وكذا من نطق بكلمة الكفر قهرا عنه فلا حرج عليه "الأسن اكره و قلبه مطمئن
 بالإيمان"، (النحل : ١٠٦) والانسان بطبيعته فيه جانب الخير اولا . . . لو
 لم تتغلب عليه جوانب عوامل الفساد (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق
 الله، ذلك الدين القيم (الروم : ٣٠)

و بداخل الانسان عوامل البيئة كالفساد والشر وأبليس والنفس والهوى
 كلها عوامل و قوى يتزعمها إبليس، فمن أراد النجاة، عليه أن يصارع هذه القوى
 و يتحصن من هجماتها. بان يلجأ لخالقه بالخضوع والتقوى والاستئثال لأوامره
 — و بين الله لعباده الطريق السليم بأن بعث لهم رسلا . "وان من امة
 الا خلا فيها نذير، (فاطر : ٢٤) و كان آخرها رسالة محمد صلى الله عليه وسلم
 و معجزته الخالدة "القرآن الكريم"، و بهذا قطع طريق الاعتذار على كل من
 اتخذ المهه هواه "رسلا مبشرين و منذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد
 الرسل"، (النساء : ١٦٥) و هناك فرق بين الانسان الذى آمن بربه و حاول بقدر
 طاقته ان يسير على نهجه مستقيدا بكل ما وهبه الله من نعمة العقل والسمع والبصر . .
 وبين الذى ضل فى متاهات الهوى والشهوة و عطل تلك النعم — وانحدر الى
 مستوى لا يليقه بمخلوق كرمه الله "ارأيت من اتخذ المهه هواه، أفانت تكون
 عليه وكيلا ام تحسب ان اكثرهم يسمعون او يعقلون، ان هم الا كالانعام بل
 هم اضل سبيلا"، (الفرقان : ٤٣، ٤٤) فالانسانية لها مقومات ولا يصح أن تكون

تلك المقومات مادية وانما هي معان سامية تتفق مع مكانة الانسان الفاضل الذى يريد . . . أن يكون عبدا لله . . . و يحدثنا تاريخ العلوم والاخلاق والفلسفة فى كل عصر انهم حاولوا تحديد هذه المعانى ليصلوا الى الانسان الفاضل المميز بنسمة العقل والفكر . . . و يأتى القرآن فيه خير صورة متكاملة للانسان الفاضل المستقل .

وسأحاول أن استمد ذلك من الكتاب والسنة، كيف يكون العبد . . . عبدا . . . لله ؟؟ يقول سبحانه . . . "فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى"، (طه : ١٢٣) "فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون"، (الانعام : ٤٨) و بين القرآن ان التقوى لا توجد بدون ايمان، فهو بمنزلة الاساس . فى تحقيق العبودية فى الفرد . . . والاوامر والنواهى وجهت الى النوع الانسانى فى القرآن . . . والذى ينتفع بها الممثل لها . . . وهم المؤمنون - "ان الذين كفروا لن تغنى عنهم أسوالهم ولا أولادهم من الله شيئا، (آل عمران : ١١٦) ولتسهيل سہمتنا ولمنارة الطريق أمام المریدين الذين يريدون أن يكونوا عباد الله بحق!! والذين شرح الله صدورهم للإسلام . . . أن تتبع الآيات التى تحدد أوصاف تلك الطائفة من عباده وما دام الايمان هو الاساس فمن المنطقي أن يكون هو المعنى الذى نبحث فيه . (بايها الذين آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى انزل من قبل، و من يكفر بالله وملكه وكتبه ورسوله واليوم الآخر فقد ضل ضللا بعيدا) (النساء : ١٣٦) فهذه الآيات قد شملت أهم شئ فى الايمان بكل سما أنزل الله ولا تفريق : "ان الذين يكفرون بالله ورسوله و يريدون ان يفرقوا بين الله ورسوله و يقولون نؤمن ببعض و نكفر

ببعض . . . أولئك هم الكافرون حقاً، (النساء : ١٥١) من هنا كان الدين واحداً عند الله وهو الاسلام . . . والايان بجميع رسالاته وأنبيائه دون تفرقة بين أحد منهم . . . والايان لا بد أن يشمل وحدانية الله وقدرته وارادته و علمه المحيط وعدله الشامل و كل ما وصف الله به نفسه، ومن اهم المصادر التي يرتكز عليها الايمان بالله هو العقل ، الذي منحه الله للانسان ويميزه على غيره . . . ولهذا لانجد في القرآن آية تناقش المؤمنين في أسباب ايمانهم بالله أوفى صحة عقيدتهم بطريقة مباشرة لكن مظاهر الكون فيها الكفاية للمؤمن ليزداد ايمانه، و تتوى بها عقيدته . . . اقرأ قوله سبحانه ” الم يروا الى الطير مستخرات في جو السماء . ما يمسكنهن الا الله . ان في ذلك لايت لقوم يؤمنون،، (النحل : ٧٩) ” الم يروا انا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً، ان في ذلك لايات لقوم يؤمنون) (النمل : ٨٦) والآيات كثيرة . . . والله يخاطب المؤمنين الذين فهموا الكون و تدبروا ما فيه من مخلوقات، تنطق بقدرته و عظمته و تصرفه الطلاق الحكيم وعندما يستقر الايمان المنبعث عن العقل السليم . . . تكون الطريق مسورة للايمان بكل ما أنزل الله . . . و حتى تتشغل فينا العبودية الصحيحة يجب الايمان بالملائكة، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون — والايان باليوم الآخر وما فيه من عدالة المهية . ” افحسبتم انما خلقناكم عبثاً وانكم اليها لا ترجعون،، (المؤمنون : ١١٥) والبعث أساس الايمان بقدره الله : فسيقولون من يعيدنا ؟،، ” قل الذي فطركم اول مرة،، (بنى اسرائيل : ٥١) وقال تعالى : ” قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى انشأها اول مرة وهو بكل خلق عليم،، (يس : ٧٨، ٧٩) و طريق السعادة فى الدارين . هو الايمان الذى يقود للخير . . . واذا بحثنا عن صفات المؤمن التى تلزم أن

يكون العبد صالحا في الجماعة، والمجتمع المؤمن الذي يجهش فيه . . . نجد القرآن تحدث كثيرا عن تلك الصفات، فعندما يتحدث الى الجماعة المؤسسة يناديها بعنوانها: "يا أيها الذين آمنوا، تمييزا لها عما عداها . . . لتقربى روابط الفرد والمجتمع و تثبت اركان الجماعة و يهتدى بهدى الله وينشر السلام في الارض: "انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون. الذين يقيمون الصلوة و ما رزقتهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا، لهم درجات عند ربهم و مغفرة و رزق كريم،، (الانفال: ٢ الى ٤) "والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر و يقيمون الصلوة و يؤتون الزكوة و يطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله، ان الله عزيز حكيم،، (التوبة: ٧١) فالصفات التي يجب أن تكون متوفرة في العبد المؤمن الخاضع لله المتبحر لاوامره: خوف الله ووجل القلب عند ذكر الله سبحانه . "واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا،، (الانفال: ٢) و منها ايضا . . . التوكل على الله واقام الصلاة و ايتاء الزكاة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر و طاعة الله ورسوله و الاعراض عن اللغو . . العفة . . مراعاة الاسانة والحمد . ورسوخ العقيدة بحيث لا يعتريها شك، والجهاد في سبيل الله بالمال والنفوس، والعدل في جميع أبعاده . والا خلاص في العمل، والاعتراف بالجيبيل . . وقوة الارادة، و ضبط النفس . . والمسالمة البناعة و عدم الاعتداء . . واذا تتبعنا لحل صفة من تلك الصفات بالشرح والتعريف لما كفت لذلك مجلدات ولطالت الايام والسنين . . . لكن سنقتطف منها بعض التعريفات باختصار، ولأن الذكرى تنفع المؤمنين . و حتى يتسنى لنا معرفة متى يكون العبد عبدا لله — فالقرآن يقرر أن الخوف من مستتبعات الايمان، فالمؤمن يخاف الله و يخاف عذابه

فى الدنيا والآخرة . و يخاف من سوء العاقبة . . وسما لاشك فيه أن الجهاد يحتل المركز الأول فى الخيرات التى يسارع اليها المؤمنون الذين يخشون ربهم و يخافون وعيده . ويعونه سبحانه يكسبون النصر "ولنسكنكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى و خاف وعيد (ابراهيم : ١٤) و كلما ازداد المؤمن خوفاً من الله كلما ازدادت معرفته به ووضحت له عيوب نفسه وادراك مدى تقصيره فى حق خالقه . . قال صلى الله عليه وسلم : والله انى لا أعلمكم بالله وأشد كم خشية له . و بالرغم من صلته بربه و مكانته عنده . فقد طلب منه أن يقول : "انى أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم" (الانعام : ١٥) والخوف من الله دائماً يرفع العبد ليتقرب اليه وهو الغالب على أمره : "انما تذر من اتبع الذكر و خشى الرحمن بالغيب فبشره بـمغفرة وأجر كريم" (يس : ١١) والمؤمن عند سماعه للقرآن يزيد ايمانه والزيادة لا تكون الا اذا بلغ تصديقه حد اليقين ، ومارس الطاعات وابتعد عن المعاصى و بعد عن الشك ، ولما أن طرفى العقيدة الايمان والكفر . . فيهما زيادة و نقص ، فكذلك العقيدة فى نفوس المؤمنين ليست فى مستوى واحد . . اذهم يختلفون فى استعدادهم للتضحية فى سبيل عقيدتهم . . ومن صفات المؤمن . التوكل على الله . . وهى الثقة التامة فى حكمته واليقين الشامل الصادق بقدرته وأنه محفوف فى كل أمره بعناية الله التى تهيب له طريق الخلاص "فاذا عزمت فتوكل على الله" (آل عمران : ١٥٩) و يجب أن نعلم أن المتوكل على الله لا يتعارض مع الاخذ بالاسباب . . فالتوكل ايمان عميق بتلك الاسباب والنتيجة له سبحانه وله الامر .

والعبد لا يكون عبداً لله . بدون صلاة . . فهى الركن الهام فى كل الديانات . يقول سيدنا ابراهيم "رب اجعلنى مقيم الصلاة و من ذريتى" (ابراهيم : ٤)

ففى قصص ابراهيم ولوط واسحاق ويعقوب : ”وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة“، (الانبياء : ٧٣) ثم يقول فى موسى : ”انى انا الله لا اله الا أنا فاعبدنى . واقم الصلاة لذكرى“، (طه : ١٤) وفى عيسى : و أوصانى بالصلاة والزكاة . الخ (مريم : ٣١) و أما الصلاة فى الاسلام فهى أرفع من ان يمارى فيها أو يلتمس الدليل على اثباتها فما من موضع تعرض فيه القرآن لرسم صورة المؤمنين أو المتقين السخبتين أو أولى الألباب الا و نجد الصلاة من أبرز و احسن حبات العقد اشراقا و ضياء – فلا ههيتها و شرفها و علو منزلتها نجدها فى أول سورة البقرة فى الآية الثانية مباشرة مذكورة بعد المتقين المؤمنين بالغيب : ”ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب و يقيمون الصلاة و ساء رزقناهم و ينفقون“، (البقرة : ٣،٢) ”الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم و الصابرين على ما أصابهم و المقيمي الصلاة . . (الحج : ٣٥) ”والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم و أقاموا الصلاة (الرعد : ٣٢) والآيات الدالة على ذلك كثيرة و من السهل أن يفهم الانسان السر فى طهارة و نقاوة طبيعة المصلى و بعده عن النقائص التى نحى بغيره لانه دائم الصلاة بربه اذ أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فالصلاة تبعد صاحبها عند وساوس الشيطان : ”ان الصلاة تنهى عن الفحشاء و المنكر“، (العنكبوت : ٤٥) و فى الصلاة سلاذ للمؤمن عندما تلم به المصائب أو يقع فى الشدائد، فيهرع اليها : ”واستعينوا بالصبر و الصلاة“، (البقرة : ٤٥) . و الصلاة ليست سهلة الا على الخاشعين : ”وانها لكبيرة الا على لبقرا ماشعين . (: ٤٥) ثم ياتى نداء آخر لعباد الله المؤمنين وهو الاتفاق . و ما من موضع ذكرت فيه الصلاة الا قرنت معها الزكاة : ”الذين يقيمون

السياسة وسما رزقتهم ينفقون،، (الأنفال : ٣) و كما نعلم أن الصدقة الواجبة لا بد من اخراجها جهرا و اعلان الحاكم بها، أما المندوبة فاخفاؤها أعظم لأن ذلك من أو صاف العابدين المؤمنين،، الذين ينفقون في السراء والضراء،، (آل عمران : ١٣٤) ”وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم،، (البقرة : ٢٧١) فلو لم تكن الزكاة لاصبح الفقراء أخطر شئ على الامة ولتركزت فيهم عوائل الحقد . . . و اذا كان الله سبحانه بين للمؤمن كفرد و كذلك بين للجماعة وللامة، كيف يكونوا عبادا لله فقد اوجب العمل لأصلاح الفساد و اوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهي من مقومات شخصية المؤمن . و يدعو الله عباده لذلك بقوله : (ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر أولئك هم المفلحون) (آل عمران : ١٠٤) و ليس هذا غريبا . . . اذ الامر بالمعروف والنهي عن المنكر جاءت به الرسالات المتعاقبة و في كل مراحل التاريخ الانساني . . . و نرى في القرآن ان اقواما كثيرة أبادهم الله بسبب اتيانهم المنكر - ونود أن نقف هنا قليلا . لنقول للذين ينادون بتحكيم العقل يعتبرون هو المشرع . . . و هذا مخالف لسنة الله في عباده - لأن الانسان قاصر ولا يكفي تشريعا للانسانية سيما كانوا على درجة من العلم . وهي ان صحت في زمن فلن تصلح للآخر ولا تتمشى مع تطور الجماعات وهي لا تستند على يقين . . . لذلك يجب طاعة الله ورسوله في كل شئ: ”يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الامر منكم. (النساء : ٥٩١) .

ومن أوصاف عباد الله المؤمنين: الذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت ايماهم فانهم غير ملوسين. (المؤمنين : ٦)
 و أيضا الجهاد . . . بالنفس و بالمال : ”ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم و أنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون. (الحجرات : ١٥)

والجهاد ليس مقصوراً على حمل السلاح فقط . . . بل يشمل المحافظة على العقيدة . . . ومجاهدة الشيطان والنفس . . . والجهاد في سبيل الله . والجهاد في سبيل الله لن يتحقق الا من مؤمن ملا الايمان قلبه و نفسه . واستاثر حب الله وحب رسوله وحب دينه بكل جراحة من جوارحه . بما يجعله يقدم نفسه وساله وولده في سبيل الله طائعا مختاراً . والاسلام لا يقر الظلم ولا يبارك العدوان . . . و تعاليمه تدعو الى اشاعة السلام والامن والطمانينة بين عباد الله وان تفرقت بهم السبل . . . حتى في اباحته للقتال دفاعاً عن النفس والعقيدة ، نجد ان الهدف هو تأمين حياة الفرد دون اكراه . . . ومن صفات عباد الله العادل . . . فيه يعم الامن و يشعر كل فرد فيه بالطمانينة والثقة : ”واذا قتلتم فاعدنوا ولو كان ذا قربى . . .“ (الانعام : ١٥٣) والاخلاص في العقيدة فطرى في النفس تتوجه اليه عند ما تتخلص من مؤثرات البيئة و خاصة عند ما يقع الانسان في مأزق ، و متأكد أن لا ساجاً من الله الا اليه . فقلب المؤمن عامر بالعقيدة القوية في الله سبحانه و تعالى سواء كان في يسر أو عسر وهو في تصرفاته لا هدف له الا وجه الله و مرضاته . . . والشكر والاعتراف بالجليل لصاحب الشكر والجليل . . . والنعم التي توجب الشكر لله كثيرة و متنوعة ، ”وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، (ابراهيم : ٣٤) و كلها يتوقف عليها صلاح الحياة الانسانية في جانبها المادى والروحى . أما النعم المادية : فمنها نعمة الطعام الذى لا يعيش الانسان بدونه : ”يا ايها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم تعبدون (البقرة : ١٧٢) و منها الحيوان : ”أولم يروا أنا خلقنا لهم ، مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون . و ذللناها لهم فمنها ركوبهم و منها يأكلون (يس : ٧١ ، ٧٢) و منها نعمة الماء الذى لا بد لكل حي من الحصول عليه : ”أفأرأيتم الماء الذى تشربون . أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه

أجاءا فلولا تشكرون،، (الواقعة: ٦٨ الى ٧٠) و منها نعمة الليل والنهار: و من رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون (القصص: ٧٣) و نعم الله لا تعد ولا تحصى. أما النعم الروحية. فمنها نعمة التعلم التي اختص الله بها الانسان و جعلها من سمياته . . وما وهبه الله من وسائل توصل اليه: "وانه أخرجكم من بطون أسماكتكم لتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون،، (النحل: ٧٨) و منها نعمة الهداية والرحمة . . و تتشمل في التشريعات التي تصلح بها حياة الناس في التيسير ودفع الحرج . . تشير الى ذلك آيات الصوم والكفارة والصلاة والايان والندور والطلاق . . الخ . واذا كان شكر الانسان لله سبحانه يتشمل في الايمان به وفي الطاعة لاوامره والبعد عن نواهيه . . ولا يتصور فيه مقابلة الجميل بمثله . لان الله غنى عن العالمين: "ياايها الناس أنتم الفقراء الى الله . . . (فاطر: ١٥) . و من المقرر في عالم الفكر أن الانسان حيوان ناطق، لكن له سيزة العقل والتفكير عن طريقها يصلح شأنه، و يتكيف بمعونتها مع المخلوقات التي تشاركه الحياة في الأرض. فهنا تظهر نعمة الفكر . . من ضبط النفس وقوة الارادة، وأن يتصرف كالنسان . . واذا كان المؤمن هو النموذج الحي للانسان الحق، فمن الطبيعي أن يكون قوى الارادة: (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين و نبلو أخباركم (محمد: ٣١). فعاطفة الكراهية مثلا بين شخص و آخر قد تدفعه لأن يغمط حقه، واذا اسكنه الظروف من ذلك انتقاما منه، والله يحذر المؤمن من أن يخضع لعاطفة في مثل هذه الحالات بل يجب أن يضبط نفسه: ولا يجبرسكم شأن قوم على أن لاتعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون (المائدة: ٨) وفي النهاية . . تلك هي بعض صفات المؤمن

الخاضع لربه الذى يريد أن يكون عبدا لله سبحانه . ولا يكون مؤمنا الا اذا تحلى بمجموعها .

(١) أن يكون المرء على ذكر من ربه يرجو رحمته و يخاف عذابه . . يتأمل مظاهر قدرته، و يؤمن بحكمته، و يرضى بما قسم الله له يخلص عبوديته فى صلاته .

(٢) أن يكون لبنة صالحة فى بناء المجتمع الذى يعيش فيه، يسعى لتقويته فى أمور بالمعروف و ينهى عن المنكر.

(٣) و يكون حسن المعاملة، لا يصرف الاعتداء بل يدعو للسلام، مع عدم الخنوع و يحترم نفسه، و يعدل قدر استطاعته، و يتدبر بالصبر اذا ابتلى بالناس.

(٤) يعطى للعقيدة حقا فهمى عنده اعز من نفسه وولده وواله، و يجاهد فى تبليغها شكرا لخالقه، و اعترافا بفضله، على أن تظل كلمته سبحانه هى العليا: "وآية العزة ورسوله وللمؤمنين"، (المناققون : ٨) . . نضرع اليه سبحانه أن يملأ قلوبنا بالايمان، وأن يوفقنا لما فيه خيرنا فى الدنيا والآخرة : ربنا آتنا من لدنك رحمة وهب لنا من أمرنا رشدا (الكهف : ١٠) ربنا لاتزع قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب، (آل عمران : ٨) "ربنا اننا سمعنا ساديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنوا . . ربنا فاغفر لنا ذنوبنا و كفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار، (آل عمران : ١٩٣).